باب الحارة.. التجارة في رواية التاريخ

كتب / مؤيد اسكيف

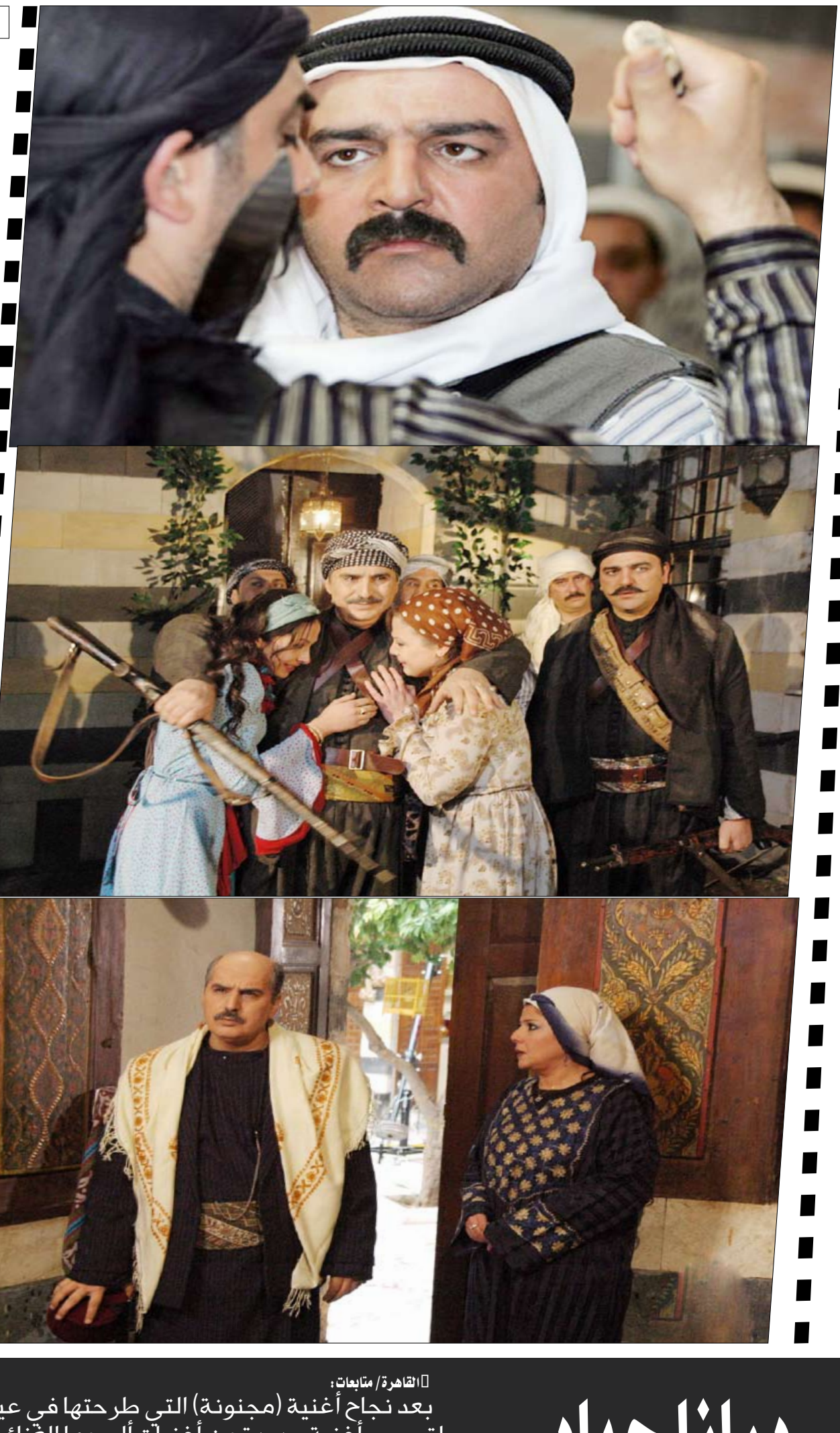

كثيرة هي المقالات النقدية التي تناولت مسلسل باب الحارة والتي لم تتطرق أبدا للحديث عن الآلة الإعلامية الضخمة و التي تمتلك كل الوسائل و الأساليب الحديثة في الوصول إلى المتلقي و التي حققت كل تلك الجماهيرية للمسلسل المذكور و كانت سبباً رئيسياً لذلك ربما ساعدت الظروف السياسية التي يعيشها المواطن العربي في استقبال أحداث المسلسل و شخصياته بالكثير من الحفاوة في محاولة للتغلب على الهزائم من خلال الزخم والشعارات التي يمتلئ بها المسلسل هذا فضلاً عن الاحتراف العالي في إثارة العواطف و التي تميزت بها أغلب المشاهد سواء كان هناك مبرر لها أو بدون وجود أي مبرر.

كما كان ملفتاً للانتباه حالة الدفاع المستمرة من قبل كاتب العمل و مخرجه عن إنجازهما متهمين طيلة الوقت النقاد بعدم الموضوعية إلا إذا كان النقد متوافقاً مع رغباتهم في حين أعلن كل منهما مرارا بأنهما الأقدر على فهم البيئة الشامية،وكل من يقدم انتقادا يتم وصفه بأنه لا يعرف الشام , في محاولة إقصائية واضحة ، و كما أن دمشق الرمز التاريخي للحراك السياسي و الثقافي و الاجتماعي لمنطقة بلاد الشام في بداية و منتصف القرن الماضي جزء من ممتلكاتهما.

لا يمكن التقليل أبداً من قدرات المخرج السوري بسام الملا و الذي خلف إرثاً حقيقياً في عمله المعروف أيام شامية لكن هذا لا يعفيه من مسؤولياته اتجاه البيئة الشامية والتي تم تشويهها بنجاح في هذا العمل الأخير بأجزائه الخمسة وبالرغم من رفضه المعلن لآراء النقاد إلا أننا رأيناه يستجيب للكثير من تلك الآراء ، ورغم ذلك فشل في توظيف تلك الإسقاطات أو المطالب التي تمت مطالبته بها حيث اتصفت تلك الإدخالات بالقوالب الجامدة التي لم تتفاعل مع خيوط الشخصيات و نسيج العمل بشكل عام، فعندما تم الحديث عن تركيز المسلسل على عينات أو أطياف اجتماعية محددة قام بإدخال شخصية أم جوزيف دون وجود المبرر الدرامي الحقيقي لمثل هذه الشخصية لتبدو مصطنعة بشكل لا يمكن إخفاؤه و حينما تم الحديث عن الاعتماد على الحلاق في معالجة أمراض سكان الحارة في الوقت الذي تمتلك فيه دمشق العديد من الشافي و الأطباء تم إدخال شخصية الطبيب من النافذة لغلق باب النقد في هذا الاتجاه ، و حينما تم الحديث أيضاً عن تغييب المدرسة أصبح هناك كتاب و حديث هامشي عن التعليم و هذا ما تم أيضاً عندما هوجم العمل الذي اتصف بالذكورية الفجة لنرى حواراً مصطنعاً بين زوجة أبو شهاب و أبيها صاحب المقهى عن الأدب و الروايات و هناك أمثلة كثيرة على محاولات إغلاق باب الانتقاد من خلال الاستجابة لتلك المطالب لتصبح لدينا مجموعة من القوالب التي لم تحقق أي انسجام مع أحداث العمل.

و برأيي فإن الخلل الرئيسي الذي لم يساعد على تجاوز هذه الإشكاليات في المعالجة يكمن في تحديد الزمان و المكان، و إذا كان الكاتب أو حتى المخرج يدافعان عن العمل من كونه حكاية افتراضية أو بحسب التعبير الدارج (حدوتة) فإن أي حكاية أو حدوتة لا بد وأن تلتزم بالشروط التي يفرضها تحديد كلا من الزمان و المكان، إذ أن الإخلال بما يفرضه هذان الأمران يفقد القصة موضوعيتها و حكمها لاسيما أننا أمام عمل توثيقي يحتفي بالشام و أهلها والتي تعتبر رمزا حقيقيا لسوريا و بلاد الشام عموماً، وبالرغم من قول المخرج أنه لا يقدم عملا وثائقيا، إلا أن أي عمل درامي هو بالضرورة عمل توثيقي يعكس واقع البيئة التي تدور الأحداث فيها، خاصة وان هناك محاولات كثيفة للاحتفال بالموروث الشعبي و الفلوكلور الدمشقي ضمن أحداث العمل، ولذلك فان تقديم هذا الموروث بهذه الصورة السلبية يكرس صورة نمطية لا تشبه الشام على الإطلاق، والقول بأنه تمت الاستعانة بمذكرات أو وثائق قديمة وأشخاص عايشوا تلك الفترات غير مقنع أيضا و هذا ما يدفعنا إلى التساؤل أين هي الرؤية الإخراجية لتلك الوثائق وأين هي المعالجة الدرامية لتلك الأحداث؟ بل أين هي الرؤية المعاصرة لما حدث في الماضي؟

يبدو أن سطوة باب الحارة كانت أقوى من ان يحتملها المخرج و لذلك فإن الانصات للنقد الموجه في ما يتعلق بالالتزام بشرطي الزمان والمكان لم يكن ممكنا و هذا ما دفع إلى الاستمرار في التوجه ذاته مع ضرورة التنويه إلى أن الزمان داخل أحداث القصة لم يكن واضحا بل يبدو عليه الإرباك و هذا ما يمكن وصفه بأحد العثرات الكبرى للعمل خاصة و أن الأطفال الصغار يكبرون ما يعني أن نحو اربع سنوات قد مرت منذ بداية الجزء الأول و هذا ما لا يتوافق مع سير أحداث الشخصيات الأخرى و العمل بشكل عام، ويقودنا للحديث عن الخطوط الدرامية التي لم تكن مترابطة و مفككة إلى حد بعيد و تتصف باعتبارها قوالب جامدة تم إخراجها من الدرج و دفعها إلى مسرح أحداث الحارة ليصبح العمل الدرامي مجرد استعراض صوري يخلو من أي فعل درامي اللهم إلا تلك الثرثرة التي باتت صفة لصيقة بنساء الشام و رجالها وبالرغم من أن الثرثرة في أي عمل درامي ليست صفة سلبية على الدوام إلا أن الثرثرة لأجل الثرثرة فقط تعني الإفلاس الحقيقي وعدم وجود قصة من الأساس ، و قد لاحظنا كيف تم تكرار خبر هروب أبو حاتم من السجن و كذلك الأمر نبأ الكشف عن حقيقة مأمون بك ، ففي العديد من الأعمال الدرامية الأخرى نرى الكثير من الثرثرة و هذا ما ميز المسلسل الاجتماعي المعاصر تخت شرقي إلا أنها كانت تحمل مضمونا حقيقيا يتم من خلاله طرح قضايا إشكالية و شائكة تعاني منها شرائح واسعة من المجتمع أهمها فئة الشباب.

كما تجدر الإشارة إلى احتفاء باب الحارة، كعمل درامي، بالقيم النبيلة كالشهامة والرجولة و الإخاء و المحبة و التسامح و الغيرية إلى حد الإيحاء بأن الاشتراكية تم تصنيعها ومن ثم تصديرها من حارة الضبع.. لكن كل ذلك يسيء للعمل و يصيبه في مقتل على اعتبار أن أي عمل درامي يتحدث عن الصراع بين قيم الخير و الشر أولا ، ثم إن الكثير من الأعمال الأخرى تتحدث عن هذه القيم و لكن بطريقة عقلانية مركبة وليست احتفالية أو استعراضية مقولبة، ناهيك عن الصورة النمطية التي يقدمها العمل لسكان الشام الانفعاليين و اللذين يقضون أوقاتهم في مزاج عصبي يسهل استفزازهم وعيونهم في حالة جحوظ دائم لتأتي الذروة الدرامية داخل العمل مبتذلة تحاول الاستعانة بالمؤثرات المختلفة كالموسيقى التصويرية و حركة الكاميرا لتحدث التأثير المطلوب و ذلك لافتقارها للمبرر الدرامي العقلاني و هذا ما يميز العمل من أوله إلى آخره.

إن حديث البعض عن تحول باب الحارة إلى إقطاعية خاصة بالمخرج بسام الملا - يميت من يشاء و يحيي من يشاء من شخوص المسلسل- لا يعنينا بشيء بقدر ما تعنينا الصورة النمطية السلبية التي تم تكريسها من خلال هذه الإقطاعية رغم أن العمل حقق حضورا واسعا لاسيما في أجزائه الأولى وهذا ما يدعونا إلى الحديث عن ضرورة إيجاد نموذج جديد للشخصية الشامية خصوصا و السورية عموما تحقق شروطها من كونها شخصية وطنية جامعة وهذا النوع من الأعمال فرصة حقيقية لتحقيق هذه الغاية التي تتطلب وجود رؤية حداثية لتراثنا و تاريخنا القريب والذي شهد بدايات تبلور الحالة الوطنية السورية و هذا ما يقودنا للإشارة إلى ندرة الحديث عن الشام في المسلسل فضلا عن ندرة الإشارة إلى سوريا والوطن و لذلك بدت مشاهد المظاهرات الداعمة لحارة الضبع في ساحة المرجة غريبة عن محيطها في الوقت الذي يمكن أن نتذكر كلمتين قالهما الممثل نصري شما في مسلسل بسمة الحزن العمل الشامي الذي تم إنتاجه قبل نحو عقدين في حوار مع أحد تجار دمشق و بحرقة خاصة وعاطفة وطنية مشبعة أثناء دعمه للثوار : (هذا وطنا .. وطنا) ، في إشارة إلى أهمية دعم الثوار و نبل العمل الذي يقومون به.

و هذا ما يؤكد أن حارة الضبع معلقة في الهواء لاوطن لها، وأن باب الحارة المغلق الذي يصر أهله على إغلاقه عزل الحارة الشامية الافتراضية عما تشهده سوريا من أحداث مختلفة، فلو كان الباب مفتوحا و كذلك عقول من خلفه لتمكن أسعد الوراق مثلا من العمل لدى أبوبشير الفران وتلقى مساعدة من أعيان الحارة سواء أبو شهاب أو غيره دون أن يتعرض لضغوط زوجته منيرة و هذا ما يمكن أن يحميه من حظه الأسود الذي ركب على كتفيه كالعفريت على اعتبار أن أحداث كلا العملين تمسرحت في الفترة الزمنية الممتدة من بداية العشرينيات حتى الاستقلال لنفاجئ بعد ذلك بشامنا التي قام الملا بتزويرها .. إنها الشام كما يراها الملا ... الشام التي يعيش فيها أبو دراع و أبو شاكوش و أبو النار و أبو مطرقة و أبو خنجر و أبو طبنجة.. وربما أبو كعب أو أبو شحاطة..

إن الدخول في المزيد من تفاصيل هذا العمل لن يوصل إلى نتائج حقيقية لكن الاستمرار في تناول البيئة الشامية بهذا القدر من التساهل والسطحية وبطريقة القوالب الجامدة الموجودة في درج الكاتب أو المخرج يشكل خطرا حقيقيا على الهوية الوطنية لاسيما وأن تلك الفترة الزمنية كانت تشهد صراعاً حقيقياً بين التنوير والأفكار الظلامية و قد حقق المجتمع الدمشقي و كذلك الحلبي على سبيل المثال وكل المجتمع الشامي نجاحا ملموسا يتم نكرانه لحساب هذه الرؤية التقليدية في الدراما و ما نحتاج إليه هو المزيد من البحث والتطوير في رؤية ذاتنا في الماضي و تقديمها بصورة عصرية يمكن على الأقل للمشاهد غير السوري ألا يستغرب كل هذه الذكورية و كل هذه الشعارات التي طغت على لغة الخطاب في المسلسل.

ليس مقبولاً أن نسمع المزيد من التبريرات التي تقول بأن باب الحارة (حدوتة) افتراضية تتناول تاريخ تلك الفترة على لسان شخصيات افتراضية مفعمة بالحب والخير والقيم الإنسانية النبيلة على حساب تاريخ له خصوصيته الفريدة جداً، بل علينا تقديمه بطرق أكثر حداثية على اعتبار أن الدراما السورية تخطو خطوات ثابتة إلى الأمام ولا نريد أن تكون مسلسلات البيئة الشامية موضة و تنتهي بل عليها أن تكون مستمرة و متجددة و لا يجوز للعابثين أيضا أن يشوهوا نجاحات هذه الدراما و إنجازات ذلك التاريخ.

ديانا حداد تستعد لتصوير أغنية جديدة

القاهرة/ متابعات:

بعد نجاح أغنية (مجنونة) التي طرحتها في عيد الأضحى الماضي، تستعد الفنانة ديانا حداد لتصوير أغنية جديدة من أغنيات ألبومها الغنائي المقبل،الذي بات في مراحله الأخيرة،حيث بدأت بعملية الاتصال مع أكثر من مخرج لتصوير الأغنية الجديدة،التي ستكشف عنها خلال الفترة المقبلة، بعد اكتمال جميع الاستعدادات لذلك.

وتأتي هذه الخطوة الثانية لديانا حداد، التي تعمل عليها لألبومها الجديد، وتأتي بعد نجاح أغنية (مجنونة) وتحقيقها نجاحاً متميزاً بعرضها مصورة عبر الفضائيات الخليجية والعربية، وصوتيا في الإذاعات، حيث تصدرت مجموعة من قوائم الأغنيات الأفضل والأكثر طلباً في بعض الإذاعات،وبقيت لفترات طويلة في القائمة، ومنهم تصدرها لقائمة التوب 10 على قناة وناسة الأسبوعي، بالإضافة إلى الإذاعات mbc fm في السعودية، وإذاعة الرابعة fm في إمارة عجمان بالإمارات،إلى جانب أنها حققت نسبة مشاهدة كبيرة من خلال الموقع الإلكتروني you tube وصلت لأكثر من مئة ألف زيارة على الأغنية حتى الآن.

هذا ويأتي ألبوم ديانا حداد المقبل متضمناً مجموعة من الألوان الغنائية العربية،التي أحبها الجمهور بها،ودائماً يطالبها منها، حيث سيتضمن أغنيات لبنانية، وأخرى مصرية كلمة ولحنا، إلى جانب الخليجية التي أصبحت من الأغنيات المتواجدة في جميع المحافل العربية، نظراً لانتشارها الكبير إلى جانب اللبنانية والمصرية ، والتي اختارت مجموعة منها من أهم صناع الأغنية فيهم.

ومن المتوقع أن يتم طرحه خلال الربع الأول من العام الجديد 2011 من إنتاج ديانا حداد الخاص (DH)،وبعد اكتمال الاتفاق مع شركة توزيع سيتم الإعلان عنها فور انتهاء الطرفين على جميع التفاصيل والبنود الخاصة بالتوزيع، حيث أن الشركات الجارية الاتفاق معها من أهم شركات الخليج والعالم العربي.